

طلاق آل سعود للوها بية لن يغيّر التاريخ

قررت "السعودية" في 27 يناير/ كانون الثاني الفائت إعلان 22 فبراير/ شباط من كل عام يوماً لذكرى تأسيس الدولة السعودية، باعتبار أن منتصف شهر فبراير عام 1727 هو بدء عهد الإمام محمد بن سعود وتأسيسه للدولة السعودية الأولى وعاصمتها الدرعية، وفق الأمر الملكي الصادر عن العاهل السعودي سلمان بن عبد العزيز.

في القرار المعلن، إعادة إنتاج تاريخ جديد للبلاد على نحو يلائم التغيير الثقا في السائد حالياً أي حاجة ولـي العهد محمد بن سلمان للتبرؤ من الفكر الوهابي الذي تأسست عليه البلاد.

والواقع أنه لا يمكن الحديث عن تاريخ الكيان السعودي الحالي دون ذكر محمد بن عبد الوهاب، ذلك أن الأخير شكّل المرتكز الأيديولوجي لمفهوم الدولة السعودية فيما كان محمد بن سعود المرتكز السياسي، فلو لا الأول لما بقي الثاني والعكس صحيح.

فضلاً عن إشكالية أخرى تكمن في منطق الغزو والإستيلاء الذي سيطر به آل سعود على الجزيرة العربية،

وهو ما يجعل أي حديث عن امتداد تاريخي وتداول شرعي للسلطة ما هو إلا ضرب من الخيال.

كانت أهداف محمد بن عبد الوهاب كسب اعتراف وحماية القيادات السياسية لجزيرة العربية، فوفاة والده عام 1740 أتاحت له تبنّي خط أكثر تشديداً وعنفاً لتخليصه من القيد الذي كان يثقل كاذهله بتجذب إغصان والده. حينها أعلن الحرب على الذين ينتهكون بأقوالهم وأفعالهم "عقيدة التوحيد"، ثم اتسّع نفوذه بسرعة وبدأت حركته تقوى عندما خلع عليه حاكم العينية عثمان ابن معمر حمايته، وتقدّم الشیخ دعوته للإقامة هناك حتى تتاح له فرصة العودة إلى مسقط رأسه حيث تتمتع عائلته بمكانة اجتماعية بارزة وتوفير الحماية التي يحتاجها للدعاية لعقيدته، ولتقوية وتصليب روابطه مع زعماء المدينة، تزوّج عمة عثمان حاكم المدينة، بحسب سيد زهران في كتابه "ملوك وأمراء الدولة والدين في السعودية"، ص 59.

أعمال الشیخ وحماية الأمير عثمان بن معمر حاكم العينية له أثارت عداء علماء المنطقة ما أدى إلى ارتفاع حدّة الهجوم على الوهابية.

ويُنقل ابن غنام المؤرّخ النجدي المعاصر لمحمد بن عبد الوهاب، الإتهامات التي وجهّها قاضي الرياض ابن السهيم أبرز أعداء الوهابية ضد الشیخ: "لقد أحرقت كتاب دلائل الخيرات لأن مؤلفه أشار إلى النبي باعتباره سيدنا ومولانا".

أحرق كتاب روض الرياحين وأسماه روض الشياطين. ادعى أن الناس لم تعد تتبع الدين ولم يؤمن أن الخلاف بين الأئمة رحمة بل رأى أنه مصيبة وسوء مصير واستنكر الدعاء للسلطان في خطبة الجمعة مدّعياً أنه فاسق واعتبر الصلاة على النبي يوم الجمعة بدعة".

هنا تبلورت حاجة محمد بن عبد الوهاب إلى رافعة سياسية تضمن له حركته الدينية المتشدّدة، فكان التحالف بين الشیخ ومحمد بن سعود حاكم الدرعية آنذاك عام 1740 نتيجة الحاجات المتبادلة بين الطرفين.

وفّر هذا التحالف لآل سعود التبرير الأيديولوجي للسيطرة على الجزيرة العربية، ففي الحقيقة وجد آل سعود في العقيدة الوهابية أداة فعالة في الدعاية لحكمهم، خاصة وأن الإعتماد على حركة دينية لكسب شرعية الحكم لم يكن أمراً غريباً في الجزيرة العربية، على سبيل المثال، وصل الخلفاء العباسيون والفاتميون للسلطة تحت بيارق الحركات الدينية. وبمجرد قيام الدولة السعودية استمرّ

الشيخ في أداء دوره تحت مظلة القيادة السياسية.

أطلق التحالف الوهابي السعودي سنة 1744 مشروعًا طموحًا يقوم على التصاهر بين مفهومي الأمة والدولة، أو بين الغايات الدينية العليا والأغراض السياسية الخاصة.

الوهابية كما يرد في كتاب "تاريخ نجد الحديث وملحقاته" للكاتب أمين الريhani، ص 48، جاءت بمثابة انبثاق لمبادرة غمة وكشكّل متطرّف للحنبلية في محاولة لإيجاد بعث سلفي متزمن لا يقر بحقائق التطوّر الاجتماعي والتعددي المذهبية والثقافية وإشكالات التوفيق مع متطلبات كل مرحلة، فاستندت إلى التوجيه السلفي وأوصدت باب الإجتهاد وذلك بعد أن قال علماء الحنابلة أن لا باب بعد الخلفاء الراشدين للإجتهاد مفتوح.

أما كيف نجحت الوهابية في بناء وتعيم نموذجها الديني بما يشتمل عليه من نتاج فقهي بطا به النقدي، فيحسب الريhani، ركنت الوهابية في صوغ أحكامها على أساس مصادر أربعة في التشريع: الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالحة والإجماع.

وقد كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما نصّه بأن الحق والصواب ما جاءت به السنة والكتاب وما قاله وعمل به الأصحاب وما اختاره الأئمة الأربع في الأحكام المتبعة فقد انعقد على صحة ما قالوه الإجماع. أكثر من ذلك، التصقت علاقات التعاون بين محمد بن عبد الوهاب وآل سعود حكام الدرعية، ارتباطاً وثيقاً بفكر ابن تيمية. وقد ذكر المؤرخ النجدي ابن بشر أن سلطة الشيخ لها نفس أهمية سلطة "الأمير".

كان حكام الدرعية يسلّمون محمد بن عبد الوهاب خمس الغنائم، الصدقات، والعوائد ليستخدماها كما يشاء، ولم يتلق عبد العزيز بن محمد بن سعود ولا أي فرد آخر شيئاً دون إذنه. وكان هو الذي يتخذ قرارات الحرب والسلم، وكانت آراء وقرارات محمد بن سعود وابنه عبد العزيز تستند لتفكير الشيخ وأحكامه.

مع حلول عام 1746 استخدم آل سعود والشيخ ابن عبد الوهاب القوة لتحقيق ما عجزوا عن تحقيقه بوسائل الدعوة والمناقشة. وبحسب زهران، اكتسب الشيخ وجاهة رسمية ومكانة اجتماعية وأصبح سكان المنطقة يؤمنون بأن معارضي الوهابية وخصومها أعداء للإسلام ويجب قتالهم ويحل الاستيلاء على أملاكهم. ثم أعلن كلا الرجلين الجهاد على خصومهم وتواتى سقوط الإمارات تحت هجوم القوات السعودية، ومع عام 1773 سقطت

إمارة الرياض ونقلت خزائنهما ضمن أملاك ابن سعود.

بسقوط الرياض، بدأت مرحلة جديدة في حياة وأعمال محمد بن عبد الوهاب والذي كرّس بعض سلطاته ومنحها لعبد العزيز بن محمد بن سعود.

لم تكتف الحركة بالصمود في وجه خصومها والاستيلاء على إمارات جديدة بل أصبحت في غضون فترة قصيرة قادرة على إخضاع مكة والمدينة والإستيلاء عليهم عامي 1805 و1806.

الواقع أنه منذ بداية تحالف آل سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانوا يجرّدون الحملات بموجب فتاوى تكفير سكان القرى والمناطق المستهدفة بالغزو والجهاد. التحالف التاريخي بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود "أمير الدرعية" وقتذاك، قام بشكل أساسي على قاعدة تكفير المجتمعات وإعلان الجهاد ضدها.

وفي الفقرة التالية من نص الاتفاق بلسان محمد بن سعود للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكان حينذاك في الدرعية: "يا شيخ إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه. وابشر بالنصرة لك ولما أمرت به والجهاد لمن خالف التوحيد". وفق د. عبد الفتاح حسن أبو عليه، في مؤلفه محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص 20 و21.

استمر نسل الشيخ و"الأمير" على هذا النحو، فلاحقاً كان عبد العزيز بن محمد، يبعث بالرسل إلى القبائل وشعاره "القرآن في يد والسيف في أخرى". فإذا الإذعان للمعتقد الجديد وإما الموت، كما يقول الكاتب د. فؤاد إبراهيم في كتابه "العقيدة والسياسة في السعودية"، ص 38.

كان المقاتلون النواحرون إلى خوض المعارك طمعاً في الغنائم، في حال استنفار دائم بانتظار أوامر الغزو حتى صارت الحرب هدفاً وليس نشر الرسالة، لأن في الحروب حصدًا للغنائم التي يعود المقاتلون محمّلين بها بعد أن انتزعوها من أعدائهم، فكانوا متّأهّبين لتنفيذ ما يطلبه الأمير منهم، لأن في طاعته مكاسبًا ماديًا عاجلاً.

وكانت الرسائل تحمل صبغة أبيديولوجية واضحة، وللهجة تهديد شديدة، وفي الرسالة التالية المرسلة من عبد العزيز إلى إحدى القبائل: "سلام، واجبكم يدعوكم إلى الإيمان بالكتاب الذي أرسل لكم. لا تكونوا وثنيين كالأتراك الذين يشركون بما، إذا آمنتם نجوتكم، وإن فسنقتلكم حتى الموت".

يحتاج آل سعود إلى توطيد جذورهم في الجزيرة العربية بهدف خلق شرعية لهم، وبهذا يعمدون إلى خلق مناسبات لبناء هوية خاصة بالدولة السعودية المستجدة.

والحقيقة أنه ليس هناك بعد عمق تاريخي لهذه الهوية، فمثلاً في سنة 80 هجرية كان في الدرعية 4 منازل فقط، بينما اليوم الجزيرة كلها آل سعود.

وبالمقارنة مع اليمن، نجد أنه منذ القرن الثالث الهجري حتى القرن الثالث عشر هجري دولة الإمامة موجودة وحكمت بشكل مستمر. آل سعود يزعمون أن لهم 300 سنة ومع ذلك ينسبون تاريخ البلاد لهم ولأجدادهم.

لا ينتهي الأمر هنا، بل أيضاً يرغبون بضم دول الجوار، بما في ذلك البحرين وقطر والعراق وغيرها.

ويبقى السؤال.. إذا كان الحاكم في "السعودية" يحكم بقوة السيف كيف له أن يحقق شرعاً؟